نحو مفهوم نظري موحد في تفسير النمو النفسي

د. صالح فؤاد الشعراوي

مقدمة:

العصر الحالي يتمركز حول الطفل بحيث أصبح كل مجتمع يركز كل اهتمامه بتطور نمو الطفل ورعايته بحيث يصل الطفل إلى أعلى مستوى تؤهله له قدراته فيحقق ذاته وبالتالي يصبح المجتمع محقق للذات من خلال أفراده حيث الطفولة صانعة المستقبل والبحث الحالي جاء ليوفق بين الأطر النظرية في تفسير النمو بحيث يصبح مفهوم شامل موحد ألا وهو تحقيق الذات self-Actualization

وعلى ذلك يتناول الباحث التوجيهات النظرية في تفسير النمو النفسي وصولا إلى التوجه الجديد كإطار متكامل في تفسير النمو النفسي.

التوجهات النظرية في تفسير النمو:

١- التوجه الدينامى: يؤكد التوجه الديانمي كما يقرر فرويد أن الخبرات التي يمر بها الطفل في كل مرحلة هي التي تحدد الناتج السيكولوجي لهذه المرحلة بالنسبة للطفل،إلا أن أريكسون يؤكد على مراحل في النمو كل مرحلة تتضمن مواجهة مع البيئة والأزمة المترتبة على هذه المواجهة مهتمًا هنا بالمحيط الاجتماعي والمغزى الاجتماعي للنمو. (محمد عماد الدين إسماعيل،١٩٩٥م، ص١٢٢-١٢٣).

٢- التوجه السلوكي: فلإنسان هنا يستجيب للبيئة على أساس العلاقة بين المثير والاستجابة (م - س) فإذا وجد الطفل قطة ولعب معها ثم خربشته؟ أثناء اللعب يرتبط لديه الخوف من القطط كاستجابة متعلمة أو قد يحد ث الخوف عندما نقرن اللعب مع القطة بمثيرات مزعجة في كل مرة يلعب معها فالطفل يتعلم كذلك الخوف من القطط

كما أضافت نظرية التعلم الاجتماعي مفهوم النمذجة أي تعرض الطفل لنماذج سلوكية تقع في خبرته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فيكتسب السلوك عن طريق الملاحظة كما يقرر باندورا. (محمد عماد الدين إسماعيل،١٩٩٥م، ص١١٧)

وعلى ذلك يتعلم الطفل من خلال تقليد نماذج القدوة في محيطه الاجتماعي ويكتسب نماذج السلوك متكاملة مرة واحدة من خلال المحاكاة.

٣- التوجه المعرفي: حيث اهتم جان بياجيه بالنمو المعرفي وكان تساؤله الأساسي: كيف تتكون في عقول الأطفال صورة عن العالم؟، والطفل عند بياجيه يمر بسلسلة من المراحل منذ الولادة و حتى الرشد كتنظيم سلوكي ومعرفي ويتم ذلك من خلال مفهوم التنظيم والتكيف، ويشير مفهوم التنظيم Organization إلى جمع الأبنية الطبيعية والسيكولوجية في نظم متآلفة وهذا الميل موروث ولكن الطريقة التي يتكيف فيها الفرد بالذات ويقوم بها بعملية التنظيم هذه تتحدد بعوامل بيئية، ويتخذ التكيف Adaptaion صورتان المواءمة Accomodation والاستيعابAssimilation، حيث الاستيعاب هو إدراج عناصر من العالم الخارجي ضمن نشاط الطفل الذاتي، وتشير المواءمة إلى الميل إلى التغير كاستجابة للبيئة.(محمد عماد الدين،١٩٥م، ص١٢٠).

التوجه الإنساني:

ينظر الإنسان نظرة إنسانية خيره فالإنسان خير بطبيعته ولديه دافع أصيل نحو النمو وتحقيق الذات ويمثل هذا الاتجاه روجرز وماسلو.

ويقرر التوجه الإنساني على التوجه غير المشروط في تقبل الشخص وهو ما اتفق عليه إليس Ellis (١٩٩٦،١٩٩٧) في تقبل الشخص غير المشروط في محاولة لدحض أفكاره اللاعقلانية وتبني أفكار عقلانية أكثر وظيفية للشخص ((Ellis,1997,1996

نحو إطار متكامل نظري في تفسير النمو:

رغم اختلاف الأطر النظرية في تفسير النمو النفسي واهتمام كل نظرية بجانب من جوانب النمو، فقد ركز الجانب المعرفي على النواحي المعرفية والتوجه الدينامى على الجوانب الانفعالية وخبرات الطفولة والتوجه الإنساني ذهب إلى أن الشخص متفاعل مع البيئة ولديه حرية الاختيار للمثيرات المحققة للذات لذا فهذه التوجهات متكاملة وليست متعارضة حيث تتعاون هذه التوجهات جميعا في تفسير النمو النفسي ولكن ذهب بعض المؤلفين الجادين في محاولة إيجاد إطار موحد يستطيع أن يجمع بين هذه المداخل المختلفة مثل (محمد عماد الدين إسماعيل) متخذا دافعا الكفاءة Competance motivation وصاغها على النحو التالي: نحن جميعا في (حاجة) إلى أن نتعامل بفاعلية (أي كفاءة) مع البيئة (إذا كان لنا أن نتكيف معها) ومقررا أن سلوكنا مدفوع إلى تحقيق الكفاءة.

والدراسة الحالية تصيغ المفهوم على نحو أشمل كما يلي: حيث نفسر النمو النفسي وتكامل المداخل النظرية في تفسير النمو بدافع تحقيق الذات self-Actualization فنحن مدفوعين إلى تحقيق الذات، فالشخص لديه دافع أصيل نحو ترقية الذات وتنميتها نحو تحقيق الذات والقدرات بدرجة تجعله يحيا حياة ثرية في معناه أكثر بكثير من الشخص العادي.

لذا فان الشخص العادي قد يكون كفأ في عمله ولكن غير محقق لجميع قدراته وليس لديه معنى، ويؤدي عمل روتيني لا يحقق القدرات المثلى ولا يؤدي إلى ترقية الذات وتنميتها ولكن عندما يكتشف قدراته وينميها ففي كل مرحلة من مراحل النمو يحقق قدراته وإمكاناته على أفضل نحو وتعتبر حياته سلسلة من تحقيق الذات.

دافع تحقيق الذات كهدف أساس للنمو:

من مراجعة ما سبق ومراجع التراث في علم النفس النمو نجد تعدد واختلاف المفاهيم التي تصف النمو النفسي فمن يقرر بان النمو هو سلسلة متتابعة متكاملة من تغيرات تهدف إلى تحقيق النضج، ومنهم من يفسر النمو بدافع الكفاءة.

إلا أننا نرى أن النمو النفسي في هذه التفسيرات جزئية، حيث منها يتناول السلوك البشري في البعد الزمني دون تقرير كنه هذا إلى سلوك وما الهدف منه.

كذلك تناول النمو كسلسلة متتابعة متكاملة تهدف إلى النضج فهذا لم يتناول النمو بمعنى كيف يوظف الإمكانيات التي يشملها النمو فليس النضج في ذاته هو الهدف.

ومن تناول النمو بدافع الكفاءة حيث الاهتمام والمعيار هو كفاءة الشخص في تغاضي عن تحقيق الشخص لذاته بمعنى أن يحقق الشخص قدراته وشعوره بالسعادة والرضا كانعكاس لتحقيق الشخص لقدراته وكيفية اكتشاف لقدراته

وتنميتها بحيث يكون الهد ف هو تحقيق الذات وليس أن يكون كُفئاً في عمله دون رضًا عنه أو شعوره بالسعادة وتحقيق الذات.

وعليه يتبن لنا أن النمو هو التغيرات النمائية التي تتجه صوب تحقيق الشخص لذاته وإبراز الإمكانيات التي يحققها على أفضل نحو فيكون الشخص كامل التوظيف

من هنا يكون المفهوم الجديد يتناول السلوك الوظيفي الكامل للشخص وإبراز إمكانياته على أفضل نحو ويعيش على أفضل نحو تؤهله له قدراته وليس التركيز على النضج دون توظيف هذه الإمكانيات وهذه النقلة في التصور لمفهوم النمو يجعلنا ننتبه في كل مراحل النمو، ما هي الإمكانيات لدى الشخص وكيف يوظفها توظيف أمثل من اجل نموه وتحقيق ذاته فمثلا عندما يقف الطفل على رجليه كأن لسان حاله إنني أستطيع أن اقف لوحدي وأحق قدراتي وكذلك في كل الجوانب.

لماذا هذا المفهوم الشامل؟

الدراسة الحالية جاءت لتوفق الخلاف القائم حول مسالة أن الطفل ينمو ويتطور ليبلغ في النهاية هدفاً مثالياً يمثل تقدمًا نحو مستوى من الأداء يتعدى النضج أو أن النمو هو سلسلة من التغيرات دون أن يليها هدف نهائي، كذلك الآثار السلبية للوراثة أو البيئة والتي تؤثر في النمو وقد تؤدي إلى أن يصبح الطفل من ذوي الفئات الخاصة،وكيف يكون المردود النمائي للطفل طبقاً للتصور المقترح في أن يتغلب على الإعاقة ويعيد تنظيم ذاته أو يكون مردود توافقي سلبي استسلامي فمسالة أن يكون الشخص إيجابي أو سلبي. إيجابي بمعنى أن يختار أكثر المثيرات تحقيقا للذات من بين البدائل المتاحة أم يكون سلبي غير محقق للذات. كذلك إشكالية مراحل النمو حيث يستمر الطفل في التقدم والنمو، ولكن هل الأساليب متميزة في أداء الوظائف بمعنى هل هناك أساليب معينة يقوم بها الطفل تتفق مع الوظائف التي تؤهلها له قدراته أم أن هناك من يجتاز مرحلة من النمو إلى المرحلة التالية أسرع إن كانت قدراته وما يوظفها منه أكثر بدرجة تجعله أن يجتاز المرحلة سريعا،لذا نجد بعض الأطفال يتخطى السلم التعليمي المعتاد بصورة أفضل و أسرع من أقرانه في نفس المرحلة.

إذن يجب الاهتمام أن ينصب ليس فقط على المراحل النمائية ولكن الكيفيات والأسباب والتي لها دور في تغير السلوك.

وعلى هذا جاء التصور المقترح ليفسر أن النمو ليس عمليه وصف للخصائص النمائية لكل مرحله من الناحية الجسمية و العقلية و الانفعالية و الاجتماعية فليس العلم عملية وصف للخصائص إلى حد ما تصل إليه في نهاية مراحل النمو.

ولكن العلم هو إعادة بناء الوقائع reconstruction في ذهن العالم أو الباحث بحيث يصوغها في بناء جديد يجيب بالحقيقة (العلم) على الواقع العياني فليس الطبيب هو من نصفه يلبس بالطو أبيض ومعه سماعة فإن صبي المعمل قد يلبس نفس الملابس ولكن الطبيب بمعنى الكلمة هو الذي يؤدي ويوظف إمكاناته لأقصى درجة وما لديه من مهارات يحققها بحيث يشير إليه الناس وظيفيا بأنه محقق لذاته.

إذن النمو النفسي ليس وصف للخصائص ولكن النمو النفسي إعادة صياغة الخصائص بما يمكن أن يوظفها الشخص وهذا ينقلنا من عملية حفظ للخصائص والتي دائما قد ينساها الطالب إلى وجود إمكانات تبرز وعلى الشخص أن يحقق أقصى درجة تؤهله له قدراته بحيث يكون الشخص ذاته ويكون الشخص كامل التوظيف.

وهذا التصور المقترح بدافع تحقيق الذات في تفسير النمو النفسي يضيف بعداً جديداً قد أغفلته مفاهيم النمو النفسي بحيث ينسحب المفهوم على الشخص العادي وذو الفئات الخاصة، حيث أن الشخص من ذوي الفئات الخاصة سمعيا أو بصريا يمكن أن يعوض نقص الحاسة من الحواس مثل السمع بان يعيد تنظيم ذاته ويركز على التواصل الكلي، وهناك أمثلة عديدة على أن بعض أصحاب الفئات الخاصة وصلوا إلى تحقيق الذات أفضل من العاديين الذين يمتلكون هذه الحواس مثل (بيتهوفن، وغيره...) وكذلك العميان قد بصل لتحقيق ذاته رغم نقص الحاسة البصر هي من وجهة نظر النمو وجود إعاقة ولكن الأعمى وظف قدراته توظيف امثل بحيث يحقق ذاته رغم ما لديه من الإعاقة فيكون الشخص الأعمى أفضل من العادي في توظيف إمكاناته لأقصى درجة تؤهله له قدراته فيحقق الهد ف من النمو وهو تحقيق الذات (مثل د. طه حسين، وغيره...).

لذا نجد بما لا يدع مجالا للشك بان هدف النمو هو تحقيق الذات بحيث يوظف الشخص إمكاناته توظيف امثل بحيث يكون ما لدى الشخص من قدرات حقيقة واقعة.

فليس العلم وصف للخصائص بل العلم تأويل لهذه الخصائص وما تنطوي عليه من إمكانات وتحقيقها بحيث يحقق الشخص ذاته، وليس العلم بأنابيب الاختبار أو المواد الكيميائية أو المعامل ولكن العلم هو التفاعل الذي يتم وما ينطوي عليه من نتائج مفيدة فليس الوصف ولكن التوظيف الأمثل الذي يؤدي إلى تحقيق الذات.

إذن النمو هو عملية تحقيق الشخص لذاته سواء أكان الشخص عادي أم ذو فئات خاصة فهذا المفهوم ينطوي على الشخص العادي وذوي الحاجات الخاصة.

إن المعرفة بأسباب السلوك وتفسيره يعيننا على التنبؤ لذا كان من أهداف العلم وعلم النفس النمو، التفسير والتنبؤ والضبط.

كيف ننمي السلوك الجيد وكيف نضبط السلوك الخاطئ:

في وسط هذه القضايا المتعارضة وما يضيفه أصحاب المداخل النظرية في دراسة النمو من تعارض مثل المدخل المعرفي لجان بياجيه عن النمو العقلي وتساؤله كيف تتكون في عقول الأطفال صورة عن العالم ؟ فانصب اهتمامه على نمو الأفراد في التفكير والاختلاف بينهم في ذلك.

والمدخل الدينامى لفرويد وتناول الاختلاف بين الأطفال في الرغبات والمشاعر والمخاوف وان خبرات الطفولة لها اكبر الأثر في النضج بأن يكون الشخص سوي أو غير سوي خاصة الست سنوات الأولى لها الأثر الحاسم في تحديد شخصيته المستقبلية.

وإزاء هذا التعارض النظري ؛ والقضايا الخلافية جاءت الأطروحة الحالية لتضع أساس واحد في تفسير النمو النفسي من خلال عملية تحقيق الذات فالطفل ينمو ويتطور ويختار المثيرات الأكثر إحداثا للنمو وتحقيق الذات.

ويؤكد هذا التصور بأن تحقيق الذات هو الدافع النظري الأصيل لدى الشخص، كل من روجرز Rogers ومالسوMalsow.

حيث لخص روجرز Rogers (١٩٦١) التغير الذي طرا على نظريته من عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٦٠م قائلا: في السنوات الأولى من تخصصي في الإرشاد والعلاج النفسي كنت أتسائل السؤال الآتي: كيف أستطيع أن أعالج أو أن أغير هذا الشخص ؟

و الآن أعيد صياغة هذا السؤال بهذه الطريقة: كيف أستطيع أن أوجد علاقة وجودًا نفسياً يستطيع هذا الشخص من خلاله أن يحقق هو أفضل نمو نفسي (حامد زهران، ١٩٨٠،ص٢٨٠)

ويوضح روجرز أن الفرد يتجه في نضجه نحو قدر أكبر من الاتساع والاستقلال والمشاركة في الحياة الاجتماعية، أي نحو قدر اكبر من تحقيق الذات وتوسيع نطاقها، لذلك فهو يتصدى للكفاح ويتحمل المشقة (Rogers C,1951,p172).

ويؤكد ماسلوMaslow أن الحاجة إلى تحقيق الذات تشير إلى قمة تطور الشخصية وان الشخص يستطيع أن يوجه طاقاته لمهمة تحقيق الذات كما أن هناك فروق فردية تختص في إشباع هذه الحاجة (Maslow A,H,1954,P240).

فلإنسان لديه دافع أصيل ليس فقط للإجابة على الحاجات البيولوجية ولكن لتطوير خبرته وتحسينها إلى أساليب أكثر ثراء وابتكاريه وهذه النزعة إلى تحقيق الذات هي الدافع الفطري الأصيل والوحيد الذي يفترضه روجرز كمسلمة في نظريته فيحقق الشخص ذاته ضمن الواقع الذي يدركه، لذا فالشخص لديه حرية في أن يختار أكثر المسالك إحداثا للنمو وتحسينا للذات من بين البدائل والنتائج البعيدة التي يدركها بحسبانها متاحة له.(ديفيد مارتن،مترجم،١٩٧٣م،ص٩٣)

وعلى ذلك فالطفل لديه دافع أصيل فطري لتحقيق ذاته عندما يقف على قدميه لأول مرة هو تفسير وترجمة لتحقيق النضج والتكامل وإبراز لتحقيق الذات وكأنه يقرر : حققت ذاتي وأصبحت أقف على قدمي لذا فهو يتصدى للكفاح ويتحمل المشقة كما أن الجوانب العقلية والانفعالية ينميها عن طريق اختياره لأوجه النشاط الهادفة التي تهدف إلى نمو الشخصية.

ويتفق مع ذلك ما قرره ماسلوMaslow (١٩٥٩م) أن الإنسان يعمل بداخله قوه موجهه نحو وحده الشخصية ونحو التعبيرية والتلقائية و الفردية و الهوية و إدراك الحقيقة بدلاً من العماء ونحو أن يكون الشخص مبتكرا وأن يكون إنساناً فاضلا ويضيف ماسلو مؤكداً أن الابتكار مظهرا من مظاهر تحقيق الذات وأسلوب من أساليب التعبير عن تحقيق الـــذات (طلعت منصور، فيولا الببلاوي،١٩٨٦،ص ٧)

ويؤكد على هذا المعنى سيد عثمان (١٩٨٦م) بضرورة أن نحرر النظر إلى الفطرة،حيث نرى هنالك الخطة العامة لنمو الإنسان وصحته وقوته نرى خطة كماله هنالك مختزلة مختزنة كما تختزل الشجرة وتختزن في البذرةِ اجل فطرة الإنسان خطه كماله في كل جانب وفي كل عمق في تلك الفطرة.(سيد عثمان،١٩٨٦،ص٤٩).

فالإنسان مدفوع بشكل أساسي نحو تحقيق الذات فهو دافع أصيل وفطري ومسيطر في كل المراحل والشخص يختار من البيئة أفضل المثيرات التي يدركها هو والتي تساعده على تحقيق ذاته من بين البدائل المتاحة له من هنا نجد توحيد الأطر النظرية على أنها متكاملة في تفسير النمو النفسي من خلال تحقيق الذات.

كذلك إن ما يقتضيه مبدأ الاقتصاد في العلم هو رد كثرة الوقائع إلى اقل عدد من المبادئ التفسيرية وهو أن مسار النمو عملية دينامية تتجه صوب تحقيق الذات وكل ما عدا ذلك من أطر معرفية و دينامية تسير في نفس الاتجاه فالنمو

النفسي عملية هدفها أن يصل الشخص إلى تحقيق الذات كاملة التوظيف، فيشمل العضوي والوظيفي والدينامي وما بين السلوك وهدف السلوك.

وما النمو النفسي إلا بزوغ الإمكانات من حيز الكمون إلى حيز الفعل ويصير تحقيق الذات على الشخص كما يصير تحقيق الذات على المجتمع كمجموع فيصبح الشخص محقق للذات والمجتمع محققا للذات كما يشير إلى المجتمع الياباني بأنه محقق للذات على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة بحيث أصبح ما لديهم من إمكانات أصبحت حقيقة واقعة.

المراجع

١. حامد زهران، (١٩٨٠م): الصحة النفسية والعلاج النفسي، القاهرة، عالم الكتاب
٢. ديفيد مارتن،ترجمة صلاح مخيمر (١٩٧٣م): العلاج السلوكي والظاهرياني، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
٣. سيد عثمان (١٩٨٦م): الإثراء النفسي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
٤. طلعت منصور و فيولا الببلاوي، (١٩٨٦م): مقياس التوجه الشخصي وقياس تحقيق الذات،القاهرة،مكتبة الأنجلو المصرية.
٥. محمد عماد الدين إسماعيل (١٩٩٥م): الطفل من الحمل إلى الرشد، ط٢، الكويت،دار القلم للنشر والتوزيع.

6-Ellis,A.1996: The Humanizm of rational emotive behavior therapies,andother cognitivw behavior therapies.journal of humanistic education and develo pment,v35n2pp69-88.

7-Ellis.A.1997.ASK Dr.Albert Ellis Archive ,Essay of the month endex,E-nail IRET ,mar,15.

8-Maslow A.1954:Motivation and personality ,New York:Harber &Row

9-Rogers,C1951Client-centered Theraby:its curent practice implication theory.Boston:Houghton Millin.